باب المحاورات والمناظرات

الطوفان

حضرة الأستاذ اسماعيل مظهر

لما كنا ندرس علم الطيران في الجامعة الاميركية في بيروت كان بين أيدينا كتاب مطوّل له مقدّمة تزيد على عشرين صفحة تصوّر ما مذهب داروِن في « أصل الانواع » وتسلسل الانسان . فقال الأستاذ : نتجاوز الآن هذه المقدمة ثم نعود اليها بعد ان ننتهي من الكتاب . ولما عدنا اليها كانت أسئلة الطلبة تطير الأستاذ عما بين هذا الموضوع ونصوص التوراة بشأن الخليقة وغيرها من الأسفار العبرانية من التناقض . فلما عجز الأستاذ عن التوفيق بين العلم والتوراة قال : أرجو ان تعلموا انه متى اختلف العلم والتوراة في مسألة كان الحق مع العلم . وأما نصّ التوراة فيجب ان يُؤوَّل تأويلاً يتفق مع العلم لأن التوراة لم تكتب في عصر العلم الحديث ، بل كتبت في عصر لا علم فيه سوى الأساطير والخرافات . أما الآن فنحن في دور من العلم لا يمكن أن يخضع للأساطير والترهات .

* * *

والظاهر من مقالك أيها الأستاذ في مقتطف مايو الذي مرّ قد جمعت فيه جميع نظريات العلماء الأولين والآخرين بشأن الطوفان دلّ على ان العلماء كانوا حتى أوائل القرن التاسع عشر يعتقدون ان الطوفان حدث فعلاً كما وصفه كاتب سفر التكوين . أي انه كان شاملاً كل سطح الارض وكان مرتفعاً حتى غمر جبال أرارات . وهذا وإن يكن أمراً غير معقول لأنه يستلزم أن يكون في الكرة الارضية وجوّها ماء يزن نصف وزنها على الاقل .

وهذا يستلزم أيضاً ان يكون ماء البحر قد نقص فهبط نحو خمسين متراً مقابل ما يتحول منه الى بخار وتنقل به الهواء الجوي فهبط جليداً . وتصور ما شاء من غير المعقول من مقتضيات هذا الطوفان الخرافي .

حكاية الطوفان أسطورة نقلها اليهود كما نقلوا غيرها من أساطير الكلدانيين والأشوريين والبابليين من سكان ما بين النهرين وما حولها أخذها اليهود حين كانوا في بابل بعد ان غزا نبوخذ نصر اورشليم وساق اليهود سبايا الى بلاده ومكثوا هناك عبيداً نحو ٧٠ سنة الى أن غزا كورش الفارسي بابل فأطلق سراحهم وعادوا الى وطنهم .

قبل ذلك التاريخ لم يكن لليهود تاريخ ولا توراة ولا أسفار موسى ولا غيرها لأن الكتابة كانت رسوماً وصوراً فلا تحتمل أن يُكتب بها اسفار مطوّلة . وما صارت بحروف صوتية إلاّ بعد أن استنبط الفينيقيون الأبجدية ولم يكن ذلك قبل ٦٠٠ سنة قبل الميلاد المسيحي .

فلما عاد اليهود من سبيهم الى أورشليم جعل أحبارهم يصنفون تاريخهم في توراتهم : بعضه كما تناقلوه بالتواتر عن أسلافهم فكانوا يحررونه كما يتراءى لهم وكما تمليه عليهم شهواتهم وما رأيهم . فرجعوا بمعظم الأساطير البابلية والأشورية والكلدانية التي توافق شهواتهم ورغباتهم بعد أن عدلوه لكي يتفق مع عقائدهم . فكتبوا أخبار رحلة أجدادهم من مصر بقيادة موسى ثمّ حروبهم مع الكنعانيين وغيرهم من سكان فلسطين بقيادة يشوع الى غير ذلك مما تراءى لهم والله يعلم كم في هذه القصص من الصحة والصدق .

وكان خبر الطوفان من جملة ما انتحلوه من أساطير ما بين النهرين وما حولها . وبالطبع عدّلوه كما اقتضت رغباتهم . والمفهوم من نص التوراة أن الطوفان حدث في تلك البلاد الغريبة عنهم ولم يحدث في فلسطين وطنهم . ولذلك استقرّت سفينة نوح في أحد جبال أراراط المشرفة على العراق . ولم تستقر في أورشليم ولا في الأردن . وإذا قارنت بين أسطورة الطوفان البابلية وأسطورته اليهودية لا تجد فرقاً إلاّ في الأسماء والأشخاص فلا يبقى عندك شك في أن أسطورة الطوفان اليهودية مقتبسة من الأسطورة البابلية .

***

وعند اليونان أسطورة طوفانية أيضاً بعيدة الشبه عن الاثنتين . والغالب أنها مقتبسة أيضاً لما كان بين الأمم البونانية والشرقية من الاتصال التجاري .

وفي بعض البلاد في جنوبي آسيا أساطير طوفانية حتى في جنوبي أوربة أيضاً وهو أمرٌ يدل على أن لحكاية الطوفان أصلاً يمكن تعليله بما يأتي : —

فهو معلوم أن في العصور الجيولوجية الأخيرة ما يدل على أنه كانت تتواتر نوبات جليدية من حقبةٍ إلى أخرى تغمر سطح الأرض الشمالي عدة سنين ثم ينقطع هبوط الثلوج فيذوب هو الأرض ويتدفق في السهول والوديان ويغمرها الى ارتفاعات غير مألوفة. والعلماء يسمون هذه النوبات بالأعصر الجليدية فتتواتر كل عشرة آلاف الى ٢٥ ألف سنة لعوامل متيورولوجية . ولعلَّ العصر الجليدي الأخير كان سبب هذا الطوفان . أو أن هذا الطوفان الذي تناقلته الأساطير اشارة إلى العصر الجليدي .

* * *

ولا يخفى أنه كلما تواتر الخبر وتناقل الناس رواياته وتقادم زمنه تعاظم قدره كما هو معلوم من طبيعة البشر في الروايات .

هذا إن صحَّ أن لخبر الطوفان أصلاً يستحق أن يتناقله الناس كالفيضان الذي يحدث أحياناً في وادي النيل . فاذا كان مرَّة عظيماً تناقل القوم خبره . وكلما انتقل من جيل الى جيل عظم شأنه . ولكن مثل هذا التعظيم أو المبالغة لم يعد ممكناً في عصرنا الذي انتشر فيه العلم والتعليم والنشر والطبع والكتب التي تسجل كل كبيرة وصغيرة .

فطوفان نوح وفلكه كما روي في التوراة خرافة أكثر مما هو أسطورة أو تاريخ . وما أسخف من العبرانيين الذين دوَّنوه وجعلوه لنا تاريخاً مقدَّساً إلاَّ العلماء الذين ألفوا بعثة لكي تبحث عن فلك نوح في جبال ارارط . والظاهر أن هذه البعثة يهودية لأنه ليس أحد غير اليهود يتاجرون بترهات توراتهم كما يتاجرون بالأكاذيب والسخافات التضليلية. ولسوء الحظ أنهم في كل عصر يجدون من يصدق أكاذيبهم حتى من كبار السادة والحكَّام . فسبحانه عليم ولم يعلِّم إلا قليلاً .

نقولا الحداد

نظرات في مسائل نحوية

هناك بعض المسائل النحوية التي يعسر على المقالم الاحاطة بها احاطة ثابتة لا يأتيها النسيان نظراً لتشعب قواعدها واختلاطها بعضها ببعض أولاً، ولاعوجاج تخريجها ثانياً، ولشيوع سيئة شواذها في الكلام المتداول ثالثاً، ولعدم انطباق قاعدتها في الكلام انطباقاً لا يعتوره الشذوذ، ولصعوبة تطبيقها من غير الاستعانة بالمعاجم (المعاجيم) أخيراً. ومن هذه المسائل:

١ — مسألة الأفعال اللازمة والمتعدية في آن واحد.

هذه الأفعال — ومنها جاء، أتى، هبط، ... — تجعل الانسان في ارتباك عند اعرابها واستعمالها ما لم يستعن بمعجم والى من يلجأ في هذه الحال؟ واللغة وخاصة قواعدها تحتاج الى تبسيط. أليس من الأحسن أن نطبق عليها قاعدة التعدي بحرف الجر ونعتبر مفعولها — اذا كانت متعدية — منصوباً بنزع الخافض (أي باسقاط حرف الجر) في مثل قولنا: جاء الدار (أي بالدار وقوله تعالى (واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي كالوا لهم ووزنوا لهم. وعلى هذا يكون القول جئت البيت بمعنى جئت الى البيت فيسهل التعليل الاعراب ويستغنى عن المعجم في البحث عن هذه الأفعال.

٢ — مسألة تأنيث الفعل وتذكيره مع جمع التكسير وغيره والوصف بالمفرد.

يقول النحويون إن الفعل يجوز تأنيثه أو تذكيره مع الجمع فتقول كان الناس أو كانت الناس. كما يجوز الوصف بالمفرد للجمع ككريات حمراء كما يجوز القول كريات حمر. وهذه المسألة طرقها الكثيرون وأتوا بتأويل مختلفة مما تشتت ذهن القارىء عن استيعابها ولي فيها رأي مأخوذ من قاعدة حذف المضاف والاستعاضة بالمضاف اليه عنه وهي قاعدة معلومة ومشهورة في كتب النحو وأمثلتها قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها) أي أهل القرية. وجاء ربك والملك صفاً صفاً أي جاء أمر ربك. (واشربوا في قلوبهم العجل) أي حب العجل. إذن أليس من السهل أن نؤول (كان الناس) بمعنى كان مجموع الناس (وكانت الناس) بمعنى كانت جماعة الناس على اعتبار حذف المضاف واقامة المضاف اليه عنه حيث يلحقه في اعرابه كما هو مقرر. وكذلك نؤول كريات حمراء على معنى مجموعة كريات حمراء، وكريات حمر على عدم تقدير حذف المضاف. فتنتهي المشكلة وكذلك الأخبار بالمفرد ينطبق عليه نفس التعليل.

٣ — مسألة التصغير الخمس التي يستوي فيها المذكر والمؤنث .

وهذه الصيغ هي فعيل بمعنى فاعل كصبور ، فعيل بمعنى مفعول كقتيل ، ومفعال كبسام ومفعيل كمعطير ومفعل كمهذار . ويلحق بها الاوصاف الخاصة بالنساء وبعد أن يعدد النحويون مواطن مجيء التاء وكيف أنها تأتي تارة للفرق بين المؤنث والمذكر ولتأكيد المبالغة كنسابة وللمبالغة كراوية ونوحة كورقة أو للعوض كعدة أو للدلالة على النسب كمهالبة . ثم المواطن التي تلحق بها التاء بعض هذه الصيغ حتى يصح المرء في ارتياك من تداخل القراء . مع أن هناك قاعدة يذكرها رجاء الله الزمخشري في مفصله وهي أن التاء قد تأتي لتأكيد التأنيث في مثل الكلمتين ، ناقة ولعجة . إذن لماذا لا نطبق هذا التخريج التأكيدي على كل الصيغ فنقول قتيلة وصبورة كما هو شائع ومستفيض في كلام الناس لا سيما وأن بعض النحويين اعتبر هذه الكلمات — عقود ، ميقانة ، مسكينة ، معطارة — شاذة وهي عندي ليست كذلك بل يمكن حملها على تأكيد التأنيث . وهذا لو تم قاعدته كل الصيغ السالفة كما بينت . هذا ولا ضير على من يستعملها كما منبهة في كتب النحو كما لا ضير على من يستحسنها على تخريج التأكيد .

٤ — في إعراب المنادى .

يقرر النحويون أن المنادى المفرد العلم والمضاف والمجموع بدون ما يرفعه وذلك لحسبانه من الأسماء المنصوبة وعلى ذلك وافقهم الكوفيون على اعتباره مبنياً ، ثم إن ذلك برهان عقد من قبل البصريين ، وإني أرى أن هذا المنادى يجب أن يعرب بالنصب بالأسماء المرفوعة . وذلك لأن الاسم المعرب إما أن يعرب بالحروف أو بالحركات وليست الحروف علامة بل تكميل إذن سيغ لنا أن نعرب (يا محمدان) على اعتباره مبنياً على الف مع أن الألف أو النون هنا علامة إعراب كما هو مقرر ومعروف . ألا يجوز لنا أن نعربه نائب فاعل لفعل مبني للمجهول محذوف تقديره يدعى محمد . يدعى غلامان محمد قول سعوجا أو ما بين وعندئذ يستوي التقدير والنطق كما استبرأنا نية أقسام الخ .

هذه نظريات ضنت بالغاية منها السعي الى تبسيط والتسهيل الى بعض القواعد شاذة قديماً تسمى [illegible] التعقيد منها أصولي من ذلك التقرير عليها أن النصب [illegible] وذلك لأن [illegible] الكلمة وما هذا إلا [illegible] الذي فيفيض أن يتولى عليها وأن [illegible] الى صحيحها كما يجب أمل من النحويين ان يطلبوا الى تبويب النحو وتبسيطه بمثل جديد [illegible] الى الأمام التقديم مؤثرين التبسيط على التعقيد والتوليد على التجديد أو التقيد

حول ذاكرة حافظ ابراهيم والمغربي

من صاحب النزهة رئيس تحرير المقتطف

قرأت في مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٢ محاضرة للعلامة الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ألقاها في حفلة تأبين حافظ ابراهيم في المجمع العلمي بدمشق وقد جاء في الصفحة ٥٦٥ من الجزء المذكور قوله :

«وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زورته الأخيرة لبلادهم أنه أبرع اخباري وأظرف نديم عرفوه في حياتهم نزولا وتواردا (فأنتم المأبنون) لدينا لحضراتكم شيئاً من ملحه الأدبية مما يدل على شدة ذكائه وقوة حفظه

(على انني مهما أغفلت ذكر خبر من أخبار حفظه لا أحب أن يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له مرة في نسيانه، ذلك أن (حافظاً) يحفظ أخبار الأولين والآخرين ويروي ما يحفظه بكل دقة وثبت ولكنه مع هذا فعل مرة عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً للآل لنفخ الله، فروى لنا (حافظ) ان هذا القصر أصبح (بستان حيوان) وذلك قوله من قصيدة نشرت في ديوانه المطبوع سنة ١٩٠٨ (ولم يجدها في ديوانه المطبوع سنة ١٩٢٢) يصف فيها ذلك القصر بقوله :

كنت بالأمس جنة الحور يافع ... ر فأصبحت جنة الحيوان

وعلى ذلك بقوله : ولعمري إن نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراته، ولطالما لمحهما في غدواته ورواحاته أمرٌ مستغرب جداً نرويه في غرائب أخباره بعد مماته كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياته. وهذا النسيان من (حافظ) يشبه ما روي عن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده أنه استأذن يوماً على بعض اخوانه فسأله الحاجب عن اسمه فأطرق يتذكر.

وأنا أقول للعلامة الجليل إن (حافظاً) لم ينس ولم يستطع ان حديقة قصر الجزيرة كانت يوماً ما مسرحاً للحيوان قبل أن تنقل الى مكانها الحالي المعروف بحديقة الحيوان بالجيزة. وعلى ذلك فان حافظ (حافظاً وذاكرته قوية) لم يكن ناسياً ولا ساهياً ولا غافلاً، بل كان راسباً مؤرخاً كما يعهده الاستاذ. كما تولى تصحيح ذلك تأييداً لقولنا حضرات محققي النسخة التي أخرجتها وزارة المعارف عام ١٩٣٧ لديوان حافظ. ذكرنا ذلك اصلاحاً له وللتاريخ

عمر الرشاد أبو السعود